
دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

ظاهرة العرافة والاحتيال في المغرب خلال القرنين 10 و11 هـ/ 16 و17م

ذ. محمد استيتو(x)
كلية الآداب / وجدة

تشكل الأزمات العويصة المختلفة، عادة، مرتعا خصبا لتفشي العديد من الظواهر الاجتماعية السلبية واتساع نطاقها بشكل أكبر، يساعدها في ذلك تشوش الأفكار واضطرابها إلى حد زيغان النفس عن الاعتدال، وارتباك الوعي وضعف قدرته على التركيز والتمييز، فيكفر البعض بالقيم وينتهكها، وقد ينزع البعض الآخر نحو المسالمة والإغراق في الاتكالية حتى السذاجة والبله، مسترشدا بسير أعلام الزهد والتصوف.

وتعتبر مثل هذه الفئات المشوَّشة، عادة، "صيدا" ثمينا للحذّاق والأدعياء ولأولئك الشطّار البارعين، الذين يكثرون وينشطون في هذه الظروف، والذين يجيدون لعبة مخاطبة الحيارى من هذه الفئات ويتدبرون رزقهم منهم من خلال استدراجهم للتبرع لهم بـ"باروك" أو بأداء أجر أو خدمات...، كل حسب وسعه، وذلك في مقابل "بيع" بواعث الاطمئنان و"الحلول" للمشاكل والهواجس التي يقصدهم، من أجلها، أولئك الحيارى التائهون.

وينسب هؤلاء الحذاق والأدعياء والشطار لأنفسهم، في الغالب، أمورا خارجة عن العادة والمألوف وسنن الطبيعة، اكتسبوها –حسب ادعاءاتهم– من جهة العالم الخفي أو من جهة النسب، ويندرج ضمن ذلك العرافة والكهانة والكرامة وادعاء النسب الشريف، وما إلى ذلك من الظواهر التي طغت بكثرة لاسيما في مغرب القرنين 10 و11 /16 و17م، نظرا للأزمات الكثيرة والمعقدة التي مرت بها البلاد في ذلك الزمان، كما نعرض لبعض ذلك في هذه المناسبة.

---

x– أستاذ التاريخ بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بوجدة.

1 - العرافة والكهانة

إن ظاهرة العرافة والكهانة والسحر والرجم بالغيب، ومختلف أشكال التّنبؤ المستندة إلى الاعتقاد في القدرات الخارقة لبعض الناس على قراءة المستقبل، أو إلحاق الأذى بالآخرين، أو جلب بعض المنافع، كل ذلك يعتبر من الأمور التي عرفتها الشعوب كافة وفي مختلف العصور[1]، وكانت أكثر ما تتفشى في المناطق الكثيرة السكان[2]، وبين الأوساط الاجتماعية الفقيرة بوجه خاص، حيث يبدو حضور هذه الظاهرة قويا في الذاكرة الجماعية لتلك الأوساط، ويتجلى ذلك في الإيمان بها وفي الإقبال عليها أو في ممارستها.

وتنشط هذه الظاهرة، بصفة خاصة، في الفترات المضطربة، كفترات الأزمات السياسية وأزمنة الأوبئة والمجاعات، أي في الأوقات التي تتعرّض فيها المجتمعات لهزّات عنيفة فتتشوش الأفكار والمعتقدات وتستبد بالناس هلوسة الخوف من الموت، كما حدث في تاريخ مغرب القرنين 10 و16/11 و17[3]. إذ إنّ ما أُعطي لهذه الأزمات من تفسيرات غيبية غالبا ما كان يصيب الناس بهلوسة استطلاع المجهول، ويدفعهم إلى التّعلّق بكل من توسّموا فيه صلاحا أو ادّعاه، ضمانا لحماية مادّية أو معنوية في الدّنيا وفوزا في الآخرة، وكلّ هذه أمور ارتبطت في الأذهان بالعرّافين والسّحرة، وبذوي القدرات الخارقة من الصّالحين من أصحاب الكرامات، والشّرفاء، فلذلك إذن شكّلت الأزمات مرتعا لتكاثر عناصر هذه الفئات من الأدعياء الذين كانوا يستغلّون سذاجة العوام وضائقتهم الاقتصادية أو مشاكلهم الاجتماعية أو هواجسهم النفسية، لأخذ أموالهم بالباطل. ويبدو أن معظم العرّافين والسحرة كان من حفظة القرآن من طلبة وفقهاء.

وقد كان عدد العرّافين كبيرا في المدن كفاس[4]، لكثرة سكانها ولتردُّدهم على هؤلاء العرّافين، نظرا لكثرة مشاكلهم وهمومهم. والعرّافون أصناف عديدة، منهم[5]:

---

1 - Robert MUCHEMBLED; Sorcières، justices et société aux 16e et 17e siècles. éd. Imago، Paris 1987، p. 8.

2 - ibid.، p. 10.

3 - انظر: أحمد بوشرب، "أزمة ضمير المغربي خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر". مجلة كلية الآداب بفاس، عدد خاص: "دراسات في تاريخ المغرب"، 1985 .

4 - الحسن الوزان، وصف إفريقيا. جزآن، ترجمة عن الفرنسية: محمد حجي ومحمد الأخضر، الشركة المغربية للناشرين المتحدين، الرباط 1980 و1982، 1 : 204. (1 : 204 = ج. 1، ص. 204. وقد اعتمدنا هذه القاعدة في هذا المقال).

5 - راجع: م. ن.، 1 : 204 وما بعدها. (م. ن. = المصدر أو المرجع نفسه).

أصحاب خطّ الرّمل، الذين يرسمون على الرمل أشكالا، ويؤدّى لهم عن كلّ رسم وفقا للعادة، أو بحسب ما لدى الشخص من إمكانيات. والعرّافون الذين يجعلون الماء في قدْر لماع ويرمون فيه قطرة زيت فيصير شفافا، بحيث يروْن فيه -حسب زعمهم- كما يروْن في مرآة جماعة من الشياطين بعضهم خلْف بعض، كأنهم كتائب جيش تعسكر وتضرب الخيام، يسلك بعضهم طريق البحر وبعضهم طريق البر. وعندما يرى العرّاف أنهم قد استراحوا يطلب منهم ما يودّ معرفته، فيُجيبون بإشارات باليد أو العين. ومن هؤلاء العرّافين من يضع أحيانا قدْرا بين يدي طفل عمره ثمانية أعوام أو تسعة، ويسألونه هل رأى الجن الفلاني أو غيره، فيجيبهم الطفل بنعم، لكنهم لا يدَعونه يتكلم وحده. ويثق الكثير من البلهاء -على حدّ تعبير الوزّان- بهؤلاء العرّافين حتى إنّهم ينفقون عندهم أموالا طائلة.

وكانت هناك أيضا عرّافات ممّن يُوهمْن العامة أنهن مرتبطات بصداقة مع شياطين من كل نوع، حُمْر وبيض وسُود. وعندما يتنبأن بشيء من الأشياء يتطيبن بعطور مختلفة روائحها، فيدخل فيهن الشيطان الذي دَعوْنه، حسب زعمهن، ويُغيرْن حينئذ أصواتَهنّ ليُوهمن أنّه المتكلِّم بفيهِنّ. والشّخص الذي يأتي لشيء يريد أن يعرفه، رجُلا كان أم امرأة، يطلب ذلك من الرّوحاني (الجان) بكثير من الاعتبار والضراعة، فإذا حصل على الجواب ترك هدية للشيطان وذهب إلى حال سبيله.

والرّاجح أن هؤلاء العرّافات لا يختلفن كثيرا عن الساحرات والمشعوذات في أورُبا من حيث وضعهن الاجتماعي وهيئتهن وأحوالهن. فالمشعوذة، هي في الغالب، امرأة عجوز تنتمي إلى جماعتها لكنها منعزلة عنها غالبا، وفقيرة لكن حالتها ليست بئيسة، وهي كذلك مخيفة بسبب ما تملكه من قدرة على التأثير في غيرها، وكلامها قبيح، ثم إنها منحرفة بعض الشيء -بالمعنى السُّسْيولوجي للكلمة- لأنها في الغالب أرملة أو تزوَّجت عدة مرات، وحضرت وفاة عدد من أفراد أسرتها[6]، ومتمرّدة على المجتمع، ومكبوتة اجتماعيا، مثل معظم المشعوذين[7].

وقد أشار الوزان[8] أيضا إلى صنف آخر من العرّافين أو السّحرة يُدعوْن "المعزّمين" أو "الحرّازين"، الذين يُقصدون من أجل طرد الشياطين والجن من الممسوسين، لأنهم يوفّقون أحيانا في ذلك، وإذا خابوا زعموا أن الجن كافر أو أن الأمر يتعلق برُوح سماوية.

6 - R. MUCHEMBLED، op. cit.، pp. 12-13.

7 - ibid.، p. 33.

8 - الوزان: م. س.، (مصدر أو مرجع سابق)، 1: 205.

ويتم التّعزيم بكتابة حروف ورسْم دوائر فوق تنُّور أو غيره، ويخطّ "المعزّم" على يد الممسوس أو جبينه بعض إشارات ويعطّره بعطور مختلفة، ثمّ يشرع بعده في الرّقية، ويسأل الرّوحانيَ عن كيفية دُخوله جسم الممسوس، ومن أين أتى، ومن هو وما اسمه، وفي الأخير يأمره بالخروج. وقد يكفي أحيانا أن يعلّق الممسوس الحرْز فيُشفى[9].

ولا يقصد الناسُ "الحرّازين" من أجل الممسوسين فقط وإنما أيضا من أجل أغراض أخرى مختلفة كتلك التي كان يُقصد من أجلها الشيخ عبد الله بن حسُّون بسلا[10]، أو الشيخ عبد الله بن حسين الأمغاري بتامْصْلُوحْت[11]، ومن ذلك مثلا دفْع أذى الطير عن الغلات، وطلب الذرية بالنسبة للمرأة العاقر، وما شابه ذلك...

وكان هناك أيضا طلبة وفقهاء يستدلون على الطّالع استنادا إلى ما يُعرف بعلم الجدول[12] والحدثان والتنجيم[13]، ومنهم من يعملون وفق قاعدة الزّايرجة، أي مخاطبة الأرواح، ويتوصّلون بفضلها إلى أجوبة صائبة عن كل سؤال يُطرح عليهم. ولا يربط هؤلاء عملياتهم بنصوص، بل يعتبرونها جزءا من العلوم الطبيعية[14].

والظاهر أن كثيرين من المغاربة كانوا يتعاطون لمختلف هذه الأشكال من العرَافة والسّحر وغيرها من المهارات[*]، واشتهروا بذلك عند غيرهم، لاسيما في المشرق، حتى ساد الاعتقاد لدى "أهل تلك البلاد أن للمغاربة في فن الدعوات وأسرار الأسماء والترقي يد طولى ليست لغيرهم."[15]

---

9 – راجع: أحمد الولالي، مباحث الأنوار في أخبار بعض الأخيار. دراسة وتحقيق: عبد العزيز بوعصاب، منشورات كلية الآداب بالرباط، ط. 1، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء 1999، صص. 236 ـ237.

10 – م. ن.، ص. 257.

11 – محمد ابن عسكر الشفشاوني، دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر. تحقيق: محمد حجي، ط. 2، الرباط 1977، صص. 105–106.

12 – كان لمحمد بن سعيد السوسي المرغثي (ت. 1089/1678) نظم شهير في علم الجدول، و"كان إذا لم تقبل شفاعته عند الأمراء في بعض الأمور المهمة يكتب جدولا يضعه تحت عمامته فإذا رآه الأمير هشّ له وقضى مآربه كلها كما تمنى." محمد اليفراني، صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر. طبعة حجرية، فاس، دون تاريخ، ص. 179. وانظر ترجمته عند: محمد بن الطيب القادري، نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني. 4 أجزاء، تحقيق: محمد حجي وأحمد التوفيق، الرباط 1977–1986، 2: 241–245.

13 – راجع ترجمة الفقيه محمد ابن القاضي (ت 1040/1631) في م. ن.، 1: 288، ومحمد بن جعفر الكتاني، سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس فيمن أقبر من العلماء والصلحاء بمدينة فاس. 3 أجزاء، طبعة حجرية، فاس 1316 هـ، 1: 287.

14 – عن قواعد الزايرجة وطريقتها، انظر: الوزان، م. س.، 1: 205–207.

(*) – انظر، مثلا، ما قاله عبد الرحمان ابن خلدون بشأن "المُتحابّة" وطابع الأسد ووَفْق المسدّس المختص بالشمس...، المقدمة (مقدمة كتاب العبر...)، دار البيان، د. ت.، صص. 499 –500

15 – أبو سالم العياشي: ماء الموائد (الرحلة العياشية) (الرحلة). جزآن، طبعة الأوفسيط، نشر: محمد حجي، الرباط 1977، 1: 454.

2 - مدعو الولاية والصلاح والمهدوية

والواقع أن هذه الفئة من العرّافين والسّحرة وغيرهم لم تكن تختلف في شيء عن أصناف أخرى من الناس الذين كان الفقر أو الخشية منه يدفعهم، بدورهم، إلى خداع الناس واستغلال سذاجة العوام والنصب عليهم في أموالهم وممتلكاتهم، وهم كذلك من جملة الطلبة والفقهاء والمتظاهرين بالصلاح، وأدعياء الكرامات والولاية وغيرهم ممّن كانوا يُشيعون بين الناس أن لهم قدرة على توفير حماية مادّية ومعنوية لهم. وقد تفشّت هذه الظاهرة بكثرة حتى غدت، في صدر القرن 16/10، من الأمور العظيمة بالمغرب[16].

وقد تعرّض عدد من المُصلحين بالنقد لأعمال أولئك الطلبة والفقهاء واستغلالهم جهل الناس وسذاجتهم لأكل أموالهم، كالإمام عبد الله الهبطي (ت. 963/1555-56)[17]، ومحمد أكبيل السوسي (ت. 1162/1748)، الذي حمَل على انحرافاتهم وبعض عباداتهم التي صارت عندهم وسائل للدخول في الدنيا وللرّياء ولكسب السمعة[18]، ومن أولئك المدّعين من "صاروا يداهنون العوام ليتمكنوا من أخذ أموالهم بالباطل وخدمتهم."[19]، أو مَن "يدّعي [...] أن له بركة ويعتقد في نفسه صلاحا، وما مثله إلا كمثل من يقول: رائحة العورة أطيب من المسك."[20]، أو "الكهنة الذين ينتسبون إلى الفقراء وطريقة الصوفية، ويتشبهون بالأولياء والصالحين ويخدعون الناس."[21] فأمثال هؤلاء هم من قال فيهم أكبيل[22]:

كم جاهل مبتدع سحّار يكون عندهم من الأبرار
يزوره النساء والرجال ومن نواحيهم أتاه المال

---

16 - أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى. 9 اجزاء، تحقيق: جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء 1954-1956، 4: 163.

17 - انظر: باب ما وقع من التغيير في أحوال الفقهاء...، عبد الله الهبطي، الألفية السنية في تنبيه الخاصة والعامة على ما أوقعوا من التغيير في الملة الإسلامية. إعداد: محمد استيتو، منشورات كلية الآداب بوجدة، مطبعة شمس، وجدة 1997، ص. 61 وما بعدها.

18 - محمد أكبيل السوسي، تنبيه الإخوان على ترك البدع والعصيان. تحقيق: محمد استيتو، منشورات كلية الآداب بوجدة، مطبعة شمس، وجدة 2001، ص. 34.

19 - م. ن.، ص. 37.

20 - م. ن.، ص. 41.

21 - م. ن.، ص. 47.

22 - م. ن.، ص. 47. ومحمد أكبيل السوسي، تنبيه الإخوان فيما هو بدعة وما هو سنة (أرجوزة). إعداد: محمد استيتو، هيسبريس تمودا، العدد XXXVIII، مجلد فريد، 2000، صص. 22-23.

فصدّقوه في ردي قوله واتّبعوه في قبيح فعله

لقد كان هؤلاء يستفيدون من شدة اعتقاد الناس في صلاحهم وفي "قدراتهم الخارقة" ويستغلونهم لابتزاز أموالهم، حتى إن بعضهم كان "من عادته المستمرة أن لا يدعو لأحد في كشف كربة أو نيل قربة إلا على شيء معيّن يأخذه منه."[23]

لكل هذا وغيره جعل الناصري[24] من بين الأمور العظيمة التي عرفتها البلاد منذ مطلع القرن 10 هـ خاصة: "ظهور الأولياء وأهل الصلاح من الملامتية، وأرباب الأحوال والجذب... لكنه انفتح به للمتسورين على النسبة وأهل الدعوى باب متسع الخرق متعسر الرتق، فاختلط المرعى بالهبل، وادعى الخصوصية من لا ناقة له فيها ولا جمل، وصعب على جل الناس التمييز، حتى بين البهرج والإبريز، لاسيما العامي الغمر الذي لا يفرق بين الحصباء والدر."

وقد انتقد اليوسي بكل وضوح الانحراف الذي أصاب "الصوفية" والاستغلال الديني والاقتصادي والاجتماعي للعوام من قبل بعض المتصوفة و"الفقراء المبطلين"، على حد تعبير أحد الشيوخ[25]. ومما قاله اليوسي في هذا الباب: "وقد طرق أسماع العوام من قبل اليوم كلام أهل الصولة كفحول القادرية والشاذلية -رضي الله عنهم- وكلام أرباب الأحوال في كل زمان، فتعشّقت النفوس ذلك وأذعن له الجمهور وفاضوا بالتشبه بهم. فما شئت أن تلقى جاهلا مسرفا على نفسه لم يعرف بعد ظاهر الشريعة، فضلا عن أن يخلص إلى الباطن، فضلا عن أن يكون صاحب حال، فضلا عن أن يكون صاحب مقام، إلا وجدته يصول ويقول، وينابذ المنقول والمعقول. وأكثر ذلك في أبناء الفقراء، يريد الواحد منهم أن يتحلى بحلية أبيه ويستتبع أتباعه بغير حق ولا حقيقة، بل لمجرد حطام الدنيا، فيقول: خُدّام أبي وزريبة أبي، ويضرب عليهم المغْرم كمغرم السلطان، ولا يقْبل أن يحبّوا أحدا في الله أو يعرفوه أو يقتدوا به غيره. وإذا رأى من خرج يطلب دينه أو من يدلّه على الله تعالى، يغضب عليه ويتوعده بالهلاك في نفسه وماله، وقد يقع عليه شيء من المصائب بحكم القضاء والابتلاء، فيُضيفه إلى نفسه فيزداد بذلك هو وأتباعه ضلالا، ثم يختلق لهم من الخرافات والأمور المعتادات ما يدعيه سيرة ودينا يستهويهم به، ثم يضمن لهم الجنة على مساوىء أعمالهم، والشفاعة يوم الحشر، ويقبض على لحمة ذراعه، فيقول للجاهل مثله: أنت من هذه اللحمة، فيكتفي

---

23 - أنظر ترجمة أبي العباس الناهض عند: عبد الحق بن إسماعيل البادسي، المقصد الشريف والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف. تحقيق: سعيد أعراب، المطبعة الملكية، الرباط 1982، ص. 97.

24 - الاستقصا، م. س.، 4: 163-164.

25 - انظر ترجمة في: صفوة، م. س.، ص. 29.

جهال العوام بذلك ويبقون في خدمته ولدا عن ولد، قائلين: نحن خدّام الدار الفلانية، وفي زريبة فلان لا نخرج منها، وكذا وجدنا آباءنا، وهذا هو الضلال المبين، وهؤلاء قطّاع العباد عن الله وعن دينه."(26)

إن شهادة اليوسي هاته توضح بجلاء كيف أن هذا الصنف من مدعي الفقر والولاية والمريدين إنما كان الفقر وسيلتهم للوصول إلى أموال الناس والعيش على حسابهم، أو على الأقل ضمان وجبات أكل من غير جهد بالنسبة للبعض، كما يُفهم من حكاية أحد معارف الشيخ محمد بن عمر المختاري(*)، الذي زار بعض الصالحين النائين في بلادهم، "فلما رجع، أتى الشيخ يسلّم عليه فسأله: كيف كانت زيارتكم؟ فقال: حسنة، الطعام كثير، والناس يُقْبلون علينا. وجعل يذكر هذا مما استحسنه. فسبّه وقال له: أنا أسألك عن قلبك وما ازداد فيه من خير ونور وأنت تذكر لي الطعام وحشو البطن، ألهذا تغيَّبْت وأتعبْت نفسك."(27)

وذكر ابن عرضون (ت. 1584/992)(28)، من جهته، "أن مُتفقِّرة هاذا (كذا) الزمان لا يوجدون إلا على هذه الصفة وأقبح [...] واجتماعهم على الأكل والشراب والمصانعة في الكلام والسلام والجلوس والقيام والمباهات (كذا) والرياء والسمعة... والتكبر والطمع في الخلق فمن أكرمهم وبجلهم أثنوا عليه ومن لم يطعمهم ولم يُسْقهم ولم يُبجلهم بالقول والفعل والسلام والكلام ويداهنهم ويرائيهم ويثني عليهم ويهاديهم ويخدمهم غضبوا عليه وحقدوا وقطعوا ووقعوا في عرضه مستسخرين به مستهزئين طالبين على كشف عورته عند الخلق."

وسجل اليوسي حالات غير قليلة لبعض المحتالين ممن تظاهروا بالولاية أو ادّعَوا بأنهم "أصحاب الوقت"، لاسيما في الجنوب، ومن ذلك رجُل خرجت إليه الجموع لاستقباله وتقبيل يديه والتبرك به وخرج إليه أمير البلاد محمد بن الشريف أيضا، وقيل إن الرجل من أولياء الله، وقال بعضهم إنه صاحب الوقت. لكن تبين في النهاية أنه مصاب(29). وفي عام 1650/1060 نزل رجل بهسكورة واشتهر بالفقر وبنى خباء

---

26 - الحسن اليوسي، المحاضرات. تحقيق: محمد حجي، دار المغرب، الرباط 1976، ص. 122.

(*) - توفي في العشرة الثامنة من ق. 10 هـ راجع: محمد المهدي الفاسي، ممتع الأسماع في ذكر الجزولي والتبّاع وما لهما من الأتباع. طبعة حجرية، فاس 1305 هـ، ملزمة 14، صص. 5-6.

27 - م. ن.، م.14، ص. 6.

28 - أحمد ابن عرضون، مقنع المحتاج في آداب الأزواج. مخطوط، الخزانة العامة، الرباط، رقم 1026 ك، صص. 166-167.

29 - المحاضرات، م. س.، ص. 45.

وأقبل الناس عليه بالهدايا والضيافات، فتبين بعد ذلك أنه رجل فاجر[30]. وحل مرة بسجلماسة رجل متسم بالصلاح وأقبل عليه الناس والأشراف خاصة، وكان يَعد الناس بأن يبلغهم إلى مكة ويحج بهم في طرفة عين، واستمر على ذلك مدة، ثم إن نفرا من الأشراف، المتضايقين من منافسته لهم، على ما يبدو، اتفقوا على اختباره، فمكثوا قريبا منه، بينما تقدَّم إليه أحدهم وعنده خمسون مثقالا. فقال له: يا سيدي، إن هذه الصلاة تثقل علي، فعسى أن ترفعها عنّي، وأفرغ تلك الدراهم بين يديه. فكأنه هش لذلك، فبادر الآخرون قبل أن يستوفي كلامه وأوجعوه ضربا، وطردوه. ثم بعد مدة، سافر بعضهم إلى ناحية المغرب، فمرّ بعيْن ماء هناك، فإذا الرجل عندها يسقي قربة، وإذا هو يهودي من يهود يُعرفون هنالك[31]...

والغالب على الظّنّ أن أمثال الذين كانوا، في زمن ابن خلدون، ينتحلون أعمالا سحرية في تكتُّم خوفا على أنفسهم من الحكّام أو الذين كانوا يتمتّعون بقدرات خارقة للعادة كالتأثير بـ"العين" مثل البَعّاجين [م. بَعّاج] الذين "يُشيرون إلى الكِساء أو الجِلْد فيتخرّق ويشيرون إلى بطون الغنم بالبعج فتنبعج."[32] باتوا فيما بعد من بين هؤلاء المُدّعين والصالحين، لأنهم بأعمالهم تلك يُرهبون أهل الأنعام ليُعطوهم من فضلها[33]. فهل يكون الشيخ محمد بن عبد الله البعّاج الصّبيحي (ت. 1015/1606)، المُقر بأنه لولا صحبته للشيخ الصالح يوسف التليدي (ت. منتصف ق. 10 هـ) لمات على شعبة من شُعب النفاق، أحد هؤلاء[34]؟

مهما يكن من أمر فإن البعض الآخر استغل رسوخ فكرة المهدوية في الفكر الإسلامي وفي الذاكرة الجماعية للناس وتوقُّع فناء العالم في القرن 10 هـ أو في الذي بعده، فادّعى كثيرون أنهم المهدي المنتظر، وأشهرهم أحمد بن أبي محلي ومحمد التاهرتي ومحمد المسناوي الكراري[35]. وادّعى أحدُهم أنه المسيح عيسى بن مريم. فقد ذُكر أنّ الفقيه عبد الله الورياجلي، لما رجع مرّة من الجهاد إلى المسجد الأعظم بقصر

---

30 - م. ن.، ص. 046

31 - م. ن.، صص. 46 و246.

32 - ابن خلدون، المقدمة، م. س.، ص. 500.

33 - المكان نفسه.

34 - نشر، م. س.، 1: 136. ومعلوم أن أُسرا مغربية لا تزال تُعرف بـ"البعّاج" إلى اليوم.

35 - راجع: محمد حجي، الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعدبين. ج. 1، دار المغرب، الرباط 1976، ص. 227 وما بعدها، وأ. بوشرب، م. س.، ص. 85، وما بعدها، ومحمد استيتو، الكوارث الطبيعية في تاريخ مغرب القرن السادس عشر. رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، فاس 1988، (مرقونة)، ص. 437 وما بعدها.

كتامة ليشتغل بالتدريس، على عادته في أوّل كل فصل شتاء، "لم يجد أحدا إلا القارئ الذي يقرأ بين يديه، فسأل عن الطلبة والناس، فقال له: يا سيدي، إنهم قد ذهبوا كلهم والناس معهم أجمعون إلى رجُل في مقصورة المسجد [...] له دعوات يدعيها ويزعم أنه عيسى بن مريم، وتظهر على يديه خوارق وانفعالات، وتنزل بين يديه موائد الطعام من حيث لا يدري أحد من أين تأتي. فقال الشيخ: اِذْهب بنا إليه. فلما دخل على الرَّجل المذكور، وجد عنده الآلاف من الخلق."[36]

3 - مدعو النسب الشريف

وكان بعض المحتالين يستغلّ، من جهته، مكانة الشّرفاء وحظوتهم في المجتمع، فيدعي النسب الشريف ويتّخذه مطية ليحصل من ورائه على موقع له في التّراتُب الاجتماعي، وليضمن بعض الموارد مما يجُود به بعض الناس، عادة، على آل البيت من هدايا وصدقات وهبات، أو ليستفيد من إعفائه مما يُؤدَّى لهم عن بعض الخدمات[37]...

وقد ادّعى البعض النسب الشريف حتّى خارج البلاد ونال من ذلك حظّا وفيرا كالمجذوب أبي زيد عبد الرحمان بن أحمد المكناسي (ت. 1085/1674-75)، الذي "كان قبل أن يرتحل للمشرق ينتسب إلى زناتة، ولما استقر بالمشرق أظهر أنه شريف وأنّ أباه أوصاه به، وقال: والله ما أظهرْته حتى أمرني به النبي -صلى الله عليه وسلم- والناس يستريبون من ذلك بالله أعلم. كان رحمه الله من لدن نشأ وهو على حالة البله، لا يعرف أمور الدنيا ولا يكترث بها [...] فجال بمدن المغرب وقراه [...] ولم يزل يتقلّب بالمغرب خامل الذِّكر [...] إلى أن قادته العناية إلى بلد الله الأمين فحج مرارا وجال في المشرق ودخل إصطمبول، وكان ركب البحر بقصد الرجوع إلى وطنه فقادته العناية لاستيطان مكة فحل فيها وألقى عصا التسيار، فطار في بلاد الحجاز صيتُه وخضعت له رقاب الجبابرة، وقُصد بالهدايا النفيسة وكثر ازدحام الناس عليه إلى أن منعوه من الخروج، فكان لا يشهد الجمعة ولا الجماعة واغتفر الناس له ذلك، لما يعلمون من حاله."[38]، "ومع ذلك لا يمسك من الدنيا شيئا، وما اقتنى ملبوسا ولا مركوبا، ولا

---

36 - ابن عسكر، م. س.، صص. 31-32. (ت. الورياجلي -حسب م. ن.، ص. 33- في العشرة الأولى من ق. 10 هـ)

37 - مثلا، كان الفقيه محمد بن أحمد الفاسي (ت. 1179/ 1765) يقصده الناس في الشهادة إلى منزله، "ولا يقبض أجرة عليها من أهل البيت إكراما ومودة لهم." نشر، م. س.، 4: 163.

38 - صفوة، م. س.، ص. 143 وما بعدها.

تزوّج ولا تسرّى، وله خدَمة من الرقيق [...] وكان له في كل يوم مصروف نحو مائة قرشي في أهل مكة، فمنهم ذو الدّرهمين إلى العشرة إلى العشرين إلى أكثر سوى ما يكون للغرباء."[39]

واللافت للانتباه أن حضور ظاهرة انتحال النسب الشريف قوي في مصادر الفترة، ومما شجع على ذلك كثرة الوفيات في صفوف أفراد الأسر الشريفة بسبب المجاعات ولاسيما بسبب الأوبئة التي تجد ظروفا ملائمة للانتشار في الأوساط الاجتماعية المتداخلة فيما بينها وبين الأسر المرتبطة كثيرا ببعضها مثل أسر الشرفاء، حتى إن هؤلاء اضطروا إلى وضع كنانيش وسجلات وتآليف في أنسابهم وضبط عناصرهم وذرياتهم وإفشائها في أفق سد الذرائع والأبواب أمام المنتحلين والأدعياء المتاجرين بهذا النسب، كما نقف على ذلك في المظان المعروفة.

وقصارى القول إن الإزم كانت تشكل مناسبة لاتساع نطاق العديد من الظواهر الاجتماعية السلبية كالتي عرضنا لبعض منها في هذا المقام، ويظهر أن الحاجة والخشية من الفقر كانتا تجعلان كل الوسائل ممكنة من أجل كسب القوت اليومي وضمان مكانة اجتماعية ما، ولو كان ذلك على حساب استغلال هستيريا الحيارى وسذاجة العوام والمغفَّلين وحسن ظنهم بالناس.

39 - نشر، م. س.، 2: 390.